شرائع الحيوان

اتينا في مقالتين سابقتين في تعاون الحيوان انه قد يتألف آجالاً وعصائب تتعاون على معيشتها ودرء المضار عنها وان ذلك كان من جملة الوسائط التي رقّت انواع الحيوان. والناظر في طبائع كثير من الحيوانات يرى ان آجالها واسرابها تخضع لواحد منها والغالب انه ذكرٌ في عنفوان شبابه وقوته فيدبر شؤونها ويتسلّط عليها تسلُّط رئيس القبيلة المتوحشة على القبيلة كلها. على ان السرب يخضع له ما رأى الخضوع لزمًا فاذا زاد طغيانه او ناظرهُ غيرهُ في السلطة وقوي عليه طردهُ السرب فهام على وجهه منفردًا

والظاهر ان اخلاق الطير ارقى شأنًا من اخلاق الوحوش والبهائم لانفراد كل زوج منه وحدهُ فلا يبقى لقوة الذكور شأن في حياتها الاجتماعية. واذا اعتصب افراد الطير وعاشت عصابة واحدة كالغربان والكراكي ونحوها شاعت بينها الحكومة الجمهورية وتولّى جمهورها تنفيذ قوانينها

وحقوق التملك مرعيّة عند كثير من انواع الحيوان فكلاب الاسواق يستقلُّ كل منها بناحية من السوق يأكل ما يرمى فيها من فضلات المنازل ولا يبيح لكلب غيره ان يقاسمه رزقه الاّ نادرًا. والعناكب لا يتعدى احدها على بيت غيره ما لم يكن اقوى منه كثيرًا. والنمل يحسب انه مالك شرعي للقرية التي يحتفرها ولكل الارض المجاورة لها فلا يدع نملاً غيرهُ يعتدي عليه. والغالب ان هذه الحيوانات الصغيرة يعتبر بعضها حقوق البعض الآخر ولا يعتدي عليه ولكنّ القوي قد يعتدي على الضعيف ويسلبهُ اشياءهُ غير مراعٍ له حرمةً شان الطغاة من نوع الانسان

ومحاكم الطير ولا سيّما الغربان اشهر من ان تذكر وقد وصفها كثيرون من المتكلمين في طبائع الحيوان وقالوا انهم رأوها مرأى العين. اما نحن فقد طالت مراقبتنا للغربان وعصائبها ولكن لم يتفق لنا ان رأينا شيئًا من ذلك. ويقال ان محاكمها للمجرم منها وقصاصها له يختلفان باختلاف ذنبه فقد تكتفي بتغريب الماشي الذي اغتصبهُ ورد موادهُ الى اصحابها او بنفيه وابلامه او بنفيه وابعاده عن جماعته فيلتصق بجماعة أخرى. وشرائع الحيوان اشدُّ صرامةً من شرائع الانسان من بعض وجوهها فالسارق من الناس يحكم عليه بالسجن والاشغال الشاقة والقاتل يُطلَق سبيله اذا لم يقرّ بالقتل ولم يشهد احد على انه رآه

وهو يقتل. واما المعتدي من الحيوان فيعاقب سواء اعتدى على مال غيره او على شخصه

حكى الاب بوجان الفرنسوي ان خطافًا بنى عشًّا فرآه عصفور فدخل اليه وامتنع فيه عليه. فاستغاث الخطّاف برفاقه فجاءت مئات وحاولت اخراج العصفور منه فلم تستطع لانه كان محاطًا بالعش من كل جانب وكان ينقد التي تهاجمه من الباب نقدًا شديدًا فيصدها ويطردها مولولة من الألم. ولما اعياها امرهُ رجعت عنه وظنّ الناظرون ان العصفور قوي عليها ولكنها ما غابت حتّى رجعت والطين ملءُ افواهها فهجمت على المنفذ وسدّته بالطين لتقتل العصفور داخله خنقًا جزاء اعتدائه

وروى المرسل الفرنسوي لاكروى انهُ كان يومًا راكبًا قاربًا فرأى جماعةً من طائر السيبطر المعروف بمالك الحزين ترعى في الماء الضحضاح فقاربها مجاذرًا لانها شديدة النفرة والاجفال واختبأ وراء شجرة بحيث يراها ولا تراهُ. والذي نبهه اليها شدّة لغوها ولغطها. فلما وقف لمراقبتها سكتت واحدقت بسيبطرٍ منها من كل جانب ووقف السيبطر بينها لا يبدي حراكًا. ثم عادت الى ما كانت عليه من اللغط واللغو وبقيت كذلك مدّةً. ثم سكتت فجأةً ووثبت عليه وما زالت تنقرهُ حتّى قتلته. قال لاكروى المذكور وكل من رأى ما رأيت يحكم ان السيبطر المقتول تعدّى شريعة جماعته فحكمت عليه بالقتل وقتلته

وامثال ذلك كثيرة كما تراها في ما كتبناهُ عن محاكم الطير في المجلد الثالث عشر من المقتطف والصفحة ١٠٣

ويظهر ان للطيور احكامًا اهليّة تراعيها وتدين من يتعدّاها فقد روى بعضهم انهُ شاهد حرجة يبني الغربان عشاشهم في كل اشجارها ما عدا شجرة واحدةً. واذا حاول فرخان بناء عشهما فيها نهاها بقيّة الغربان عن ذلك واجبرتهم على التخلي عنها وبناء العش في غيرها. قال ثم اتضح لي السبب بعد ذلك وهو انهُ عصفت زوبعة شديدة فاقتلعت تلك الشجرة ورمتها ولم تقتلع غيرها من اشجار الحرجة واذا بها مضروبة من اصلها. ولا يُعلَم حتّى الآن كيف درت الغربان بذلك ولكنّ منعها بعضها بعضًا من بناء عشاشها في تلك الشجرة حرصًا على حياتها يُشعر بانها تعرف ما هو الواجب ولا تخاف فيه لومة لائم. والارجح عندنا انها تفعل كل ذلك بالغريزة من غير فكرة ولا روية. قال وقد يمنع بعضها بعضًا من بناء عشه في شجرة معلومة لغير سبب ظاهر لان الشجرة نامية قويّة ولا يبعد انها تفعل ذلك عن هوًى في النفس لا غير

وجماعة النمل اشد الجماعات حفظًا للنظام. ومصلحة العامّة مقدّمة عندها على مصلحة

الخاصّة فاذا اهملت واحدة منها واجبانها فسنابها الموت حتمًا . وهي تنظر الى بنات جماعتها بعين والى الاجنبيات بعين أخرى فلا تعامل الغريبة معاملة القريبة . والنحل تشبه النمل من هذا القبيل ولكنها مرتبطة ايضًا برابطة القرابة اكثر من النمل لان في قرية النمل عدة اناث واما خشرم النحل فليس فيه الاّ انثى واحدة ولذلك ترى كل نملة وكل نحلة تسعى لخير جماعتها كما يسعى الانسان لزوجته واولاده . وحكومة النمل والنحل اشتراكيّة محضة مثل الحكومة التي يرغب الاشتراكيون في اخضاع الناس لها لانهم يتوخون نقض نظام العائلة وانشاء الحكومة من افراد شعبها . وذلك ما يستحيل عليهم لان جماعات النمل والنحل وما ماثلها من الحشرات اناثها وذكورها قليلة جدًّا وأكثرها خناث ليس فيها ميل طبيعي يدفعها الى انشاء عائلة مستقلة بخلاف الانسان فان هذا الميل يدفعه الى التزوج واخلاف النسل والسعي لزوجته واولاده . وقد حاول البعض من قديم الزمان تكثير عدد الرهبان والخصيان فلم يفلحوا لاسباب لا محل لبسطها هنا ولو افلحوا لانحلّ نظام العائلة وشاع مذهب الاشتراكيين

ثم ان العمّال والمناظرين من طوائف النمل والنحل خناث فقط فاذا اتّصف احدها بقوة الجسم او بشدّة الفطنة لم يتصل ما اتصف به الى نسله بالارث اذ لا نسل له بخلاف طوائف الناس فان مزايا افرادهم تنتقل الى نسلهم فيكثر التفاوت بينهم ولهذا تتعذّر المساواة التي يتطلبها الاشتراكيون . ولعلّ ذلك هو سبب ما يرى من عدم التقدّم في احوال النمل المعاشيّة والاجتماعيّة فقد رأى ازولاهير العالم الطبيعي نوعًا من النمل في سويسرا ونوعًا مثله تمامًا في بلاد الانكليز ولا بدّ من ان احدهما انفصل عن الآخر قبلما انفصلت البلاد الانكليزيّة عن قارة اوربا اي منذ الوف كثيرة من السنين ومن ثمّ الى الآن لم يتّصلا ولكنهما لم يزالا متماثلين في احوالهما وطرق معيشتهما وبناء قراهما

وحتّى الآن لا يُعلَم كيف يسوس النمل نفسه فانه يزحف على اعدائه ويحاربها ويستعبد الاسرى او يقتلها ويخرب منازل اعدائه وينهب ما فيها ويتحصن في منازله ويقيم الحرّاس ويفعل امورًا أخرى غير هذه على اساليب غير مدركة تمامًا فهل للنمل عقل ينظر في العواقب ويدبر الامور ناظرًا في مقدماتها ونتائجها او هو منقاد الى اعماله بسليقة فيه . ولو خلا الناس من العقلاء الذين يدبرون امورهم ما احكموا اعمالهم احكام النمل لاعمالها ولا نظموا حكومتهم كما ينظم حكومته

ومنذ مدة راقب المسيو برتلوت الكيماوي الفرنسوي الشهير قرية من قرى النمل فرآها تزيد

نموًّا وانتشارًا حتَّى ملأت المكان الذي كانت فيهِ ثم اخذت تنحط عن عظمها رويدًا رويدًا فقلَّ عدد افرادها ولم تعد تبني اسرابها ولا تصلحها اذا تخرَّبت. ولم يكن ذلك لان عدوًّا اعتدى عليها ولا لان الرزق قلَّ من امامها. وكان قد اشتق منها نحلة انشأت قريةً في مكان آخر فاخذت تنمو وتكثر حتَّى امتلكت الناحية التي كانت فيها وقامت مقام القرية الاولى ولعلَّ سبب ذلك ان للجماعات عمرًا محدودًا كما للافراد فعاشت هذه الجماعة عمرها واخلفت النحلة التي اشتقَّت منها ثم تولَّاها الضعف والانحطاط كما يتولَّى كلَّ حي. وذكر الكاتب سلاتر انهُ رأى شجرة تسمَّى شجرة الغربان كانت الغربان تعشش فيها بكثرة فكان يرى فيها عشرون عشًّا او اكثر او اقل ثم اخذ عدد العشاش يقل رويدًا رويدًا حتَّى لم يبقَ فيها الَّا عشَّان وذلك لان فراخ الغربان هاجرت منها الى شجرة أخرى تبعد عنها نحو ميل خارج المدينة لغير سبب ظاهر

هذا ولا يزال البحث في طبائع الحيوانات قاصرًا عن تعليل كل ما يبدو منها من الاعمال الغريبة

طرق التحيَّة واسبابها

اذا طالعت باب المسائل في المقتطف رأيت فيهِ لاوَّل وهلة ان العقل منظور على البحث والاستقصاء فيحسب لكل معلول علة ولكل شيء اصلًا ويود ان يعرف تلك العلَّة ويطَّلع على ذلك الاصل. ومن الامور ما يمكن معرفة علتهِ وردهُ الى اصلهِ على اسهل سبيل إما لانهُ حدث حينما كان الناس ينتبهون الى ما يحدث امامهم ويثبتون حدوثهُ في بطون التاريخ او لان علاقة العلَّة بالمعلول ظاهرة واضحة ترى لاقل بحث. ومنها ما يعسر ردهُ الى اصلهِ لحدوثهِ قبل زمن التاريخ او لانفصال العلَّة عن المعلول وخفاء العلاقة بينهما او لغير ذلك من الاسباب. وشأن العلماء في عصرنا جمع الحوادث وترتيبها وتقسيمها الى اجناسها وانواعها وفصولها والبحث عن اسبابها وقد انقسموا الى طوائف بحسب مواضيع البحث واصلوا السعي والجد ولم يتركوا شاردةً ولا واردةً فترى صفحات المقتطف اكبر دليل على ذلك فانها شاهدة بما يبذلهُ العلماء من السعي وما يجشمونهُ من المشاق فهذا يسافر اربعة آلاف ميل ليعلم سبب اتجاه الهياكل المصريَّة القديمة الى نقطة بين الشمال والغرب وذلك يطوف بلدان المشرق والمغرب يجمع شقف الخزف ليستدل منها على من استنبط الدهان